

# يوم كان العار ملأ أيدينا ..

بقلم سيمون دوبوفوار  
ترجمة : عايدة طهرجي دريس

يزينوها لها ويفطوها بالساحيق . ولم اكن لانفعل حين كان المتطرفون يتظاهرون في جادة الشانزليزيه ، كانوا يطالبون بان يمضي القتال حتى النهاية .. وان يعلق اليسار بالمشنفة ، وكانوا يحطمون في طريقهم زجاج وكالة السياحة التي كانت مكاتب جريدة « الاكسبريس » تقوم فوقها . لقد كانوا متطرفين . ولكن ما صغفني هو ان الشوفينية (٢) قد كسبت الاغلبية العظمى من الفرنسيين ، وان اكتشف عمق شعورهم المنصري . وكان بوست ولازمان - اللذان كانا قد سكنا غرفتي في شارع لابوشوري - يرويان لي كيف كان رجال الشرطة يعاملون الجزائريين المقيمين في ذلك الحين : في كل يوم تفتيش ومصادرة واطلاق رصاص . وكانوا يضربونهم ، ويقلبون عربات الباعة منهم . ولم يكن ثمة من يحتج على هذه الماملة ، بل كان الذين لم يكن الجزائريون قد لامسوهم بالاصبع سعداء بان يكونوا « محميين » وقد زاد انشدهاي وحزني حين عرفت اللذة التي كان الجنود الشبان في جيش الاحتلال يطبقون بها طرق اعادة السلام .

لم اكن اميل الى تعذيب نفسي ، حتى ان اول حركة قمت بها حين وضع لازمان بين يدي « مستند مولر » هي اني ابعده عني . وانا اليوم ، في هذا الشهر الحزين من كانون الاول ١٩٦١ ، ككثيرين غيري مثلي كما افترض ، اشكو من نوع من الكزاز في المخيلة . انني اقسرا نصريح « بودو » في محاكمة « ليندون » :

« لقد رأيت ذات مساء رجالا زرقا يأتون الى طاولتي : كانوا رجالا عابرة قادمين من دفن اربعة رجال وهم احياء ، اربعة من جيش التحرير كانت اعمارهم تتراوح بين العشرين والخامسة والستين . وكان اخرهم العجوز هو اخر من مات منهم . وقد قيل لي انه كان شديد الخوف .. حتى ان عرق جسمه كان يصعد بخارا في الليل . كانوا يموتون تدريجيا تحت وطأة التراب الذي كانت الكاسحة تهيله عليهم . » وقرات شهادة « لوليت » :

« كان هؤلاء الاسرى قد شنقوا من ارجلهم . وقد رأيتهم فسي الصباح ، وفي المساء كانوا ما يزالون معلقين . وكانت وجوههم سوداء برمتها ، وكانوا ما يزالون احياء . واود ان اذكر كذلك استعمال التيار الكهربائي . وحين كان هذا التيار يبلغ اسفل البطن ، فآنذاك كان يصعد اقوى الصراخ . وكانوا يجيلون التيار ايضا في الفم » .  
اقرا هذا وانتقل الى مقال اخر . وربما كان هذا هو اصل خفض معنويات امة من الامم : ان الناس يعتادون .

ولكن في عام ١٩٥٧ ، كان العظم المحطم ، والحروق في الوجه ، وعلى العضو التناسلي ، والاظافر المنتزعة ، وايلاج الاوتاد في المؤخرة ، والنشجنات - ان ذلك كله كان يصيبني انا بالذات . كان مولر قد تحدث بصورة علنية عن تجربته حين كان ما يزال جنديا في الجزائر ، وقد كلفته هذه التجربة حياته برصاصة جندي فرنسي اخر : وكان من الواجب ان يقرأ وان يعرف . ولكن كان لا بد لي من ان اقسر نفسي . وقد كان علي ان اتكبد قراءة وثائق اخرى من هذا القبيل . وكنا نتلقى كثيرا منها في « التان مودرن » فننشر وثيقة واحدة من كل عشر . وقد ظهر بعضها كذلك في مجلة « اسبري » . كانت هناك فرق برمتها تسطو

يصدر في الشهر القادم عن « دار الاداب » الجزء الثاني من مذكرات سيمون دوبوفوار بعنوان « قسوة الاشياء » . ويسر الاداب ان تنشر فيما يلي فصلا هاما من فصول الكتاب تتناول فيه الادبية الفرنسية الكبيرة وصف الجو العام الذي عاشته مع جان بول سارتر والمفكرين الفرنسيين الاحرار يوم كانت قضية الجزائر وثورتها تتأرجح في الصميم الفرنسي .

\*\*\*

لم ادع حرب الجزائر تكنسح فكري وليلي ومزاجي عن رضى ولا عن جنل . فلم يكن ثمة من هو اكثر ميلا مني لاتباع نصيحة كامو : ان يدافع المرء ، بالرغم من كل شيء ، عن سمادته الخاصة . كانت قد وقعت كوارث الهند الصينية ومدغشقر ورأس بون والدار البيضاء . وكنت استطيع دائما ان استرد الهدوء والصفاء . ولكن هذا الصفاء انهار بعد أسر بن بلا وغزو السويس : ان الحكومة معاندة في المضي في هذه الحرب . صحيح ان الجزائر ستحصل على استقلالها ؛ ولكن بعد وقت طويل . وفي تلك اللحظة التي لم اكن المح فيها نهاية حقيقة « اشاعة السلام » ، انكشفت تلك الحقيقة تماما . ذلك ان مجندين قد تكلموا ، وتدفقت المعلومات : محادثات ، رسائل موجهة لسي ، والى اصدقاء ، ريبورتاجات اجنبية ، تقارير سريعة كانت بعض الجماعات تديها . لم تكن نعرف كل شيء ، ولكننا كنا نعرف كثيرا ، بل اكثر مما ينبغي . ومن جراء ذلك ، انقلب وضعي الخاص في بلدي وفي العالم وفي علاقتي بذاتي .

انني امرأة فكر ، وانا اقيم وزنا للكلام وللحقيقة . ولقد حدث اني تعرضت في كل يوم لهجوم الاكاذيب التي تبصتها جميع الافواه ، وتكررها الى ما لا نهاية . كان بعض الجنرالية والكولونيلية يشرحون انهم انما كانوا يخوضون حربا شريفة ، وحتى ثورية : ان جيشهم كان يفكر ! ولكن المستوطنين كانوا يطالبون بالاندماج في حين ان مجرد فكرة انتخابات المقاطعة الواحدة كانت تجعلهم يقفزون في الهواء . وكانوا يؤكدون ان الشعب كان يحبهم باستثناء بعض المشايخين . ومع ذلك ، فانهم في اثناء عملية التفتيل التي تبعت دفن « فورجيه » لم يقسموا باي تمييز بين المسلمين « الطيبين » ، مسلميهم هم ، وسائر المسلمين : فلقد قتلوا جميع الذين كانوا يقعون في ايديهم . واما الصحافة ، فكانت قد اصيحت مشروع تزوير وتزييف . وقد اغضت عن المجازر التي سببها « فيشوز » و « كاستيل » (١) ، ولكنها ارسلت صراخا عظيما احتجاجا على حوادث القتل التي فتحت معركة مدينة الجزائر . واغلق المظليون حي القصبية ، واوقف الارهاب : ولم يكشفوا لنا عن الوسائل التي استعملت لذلك . ولم تكن الصحف تخشى ان تصادر وتلاحق فحسب ، وانما كانت تخشى ان تسيء الى مشاعر قرائها : فكانت تنشر ما كان هؤلاء يتمنون سماعه .

ذلك ان البلاد كانت توافق بجذل على هذه الحرب ، شريطة ان

(١) سقط ضحية قنبلة البلاستيك التي وضعها فيشوز في حي القصبية في تموز ٥٣ قتيلا وعدد لا يحصى من الجرحى . ووضع كاستيل قنبلة اخرى يوم ٦ اب لم يكن عدد ضحاياها اقل .

(٢) التمصب الوطني المتطرف الى ابعد الحدود . (٢٠٥٠) .

وتسرق وتحرق وتنتهك الاعراض وتدبح الناس . وكان التعذيب مستعملا كوسيلة طبيعية واساسية لانتزاع المعلومات . ولم تكن المسألة عارضة ، او مسألة تجاوز معين ، بل كانت منهجا يتبع : ففي هذه الحرب التي ينتصب فيها شعب برمنه ضدنا ، كان كل فرد مشبوها . ولن تسوقف الفظائع الا بوقف النار .

ولم يكن مواطني يريدون ان يعرفوا شيئا . ولكن الحقيقة رشحت، ابتداء من ربيع ٥٧ ، ولو انهم استقبلوها بالحفاصة التي استقبلوا بها الكشف عن وجود معسكرات العمل السوفياتية لانفجرت في وضو النهار . ان مؤامرة الصمت لم تنجح الا لان الجميع كانوا ضالعين فيها . اما اولئك الذين كانوا يتكلمون ، فلم يكونوا يسمعون ، وكان الصياح يرتفع ليغطي اصواتهم ، واذا سمع احد بعض الشائعات ، بالرغم عنه ، فانه كان يعجل في تناسيها . وقد علقت جريدتنا (لوموند) و (الاكسبرس) ، وهما ليستا صحيفتين سريتين ، على كتاب بيار - هنري سيمون : « التعذيب » الذي كان يقدم للجمهور وثيقة (مولر) . وتحدثت صحافة اليسار كلها عن مجموعة « مجندون يشهدون » التي كتب عنها سارتر في « النان مودرن » مقالا بعنوان : « انكم هائلون » . وقد كان مؤلفو هذه الوثائق ، في معظمهم ، كهنة لم يشترهم عبد الناصر طمعا ، ولا موسكو . والواقع ان احدا لم يتهمهم بالكذب : وانما سد الجميع اذانهم . ولم يكن سرفان - شراير الذي جند قبل ذلك بيضعة اشهر كملازم في الجزائر مشتري من قبل الجامعة العربية ولا من الاتحاد السوفياتي . وقد احدثت شهادته ، التي نشرت اولاً في «الاكسبرس» ثم ظهرت في كتاب ، ضجة كبيرة حتى صدرت بحقه « مذكرة اخبار » : وبالرغم من احترامه للأشخاص القائمين وللتقاليد العسكرية ، وبالرغم من انه المتهم في نهم مخادعات « فرق الكوماندوس السود » ، فانه كان يروي جرائم كان من المفروض ان تؤثر في الرأي العام : من مثل قتل العرب بدافع اللذة ، والاعجاز على الاسرى بصورة وحشية ، واحراق قرى برمنها ، والقتل بصورة جماعية الخ . ولكن الرأي العام لم يتأثر . وكان القنلة حاملو البازوكا ينتزهون في حرية . وكان ابفوتون قد وضع قنبلة في مصنع فارغ ، متخذا كل الاحتياطات لتلا يسبب القتل ، وقد حكم بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم . فلماذا تضامن هذا الفرنسي مع الشعب الجزائري ؟ ولماذا كان اطباء ومحامون واساتذة وكهنة مسن مدينة الجزائر يساعدون جيش التحرير الوطني ؟ لقد كان يقال انهم خونة ، وقد اجابوا . واخبر الجمهور بـ « انتحار » العربي بن مهيدي الذي وجد مشنوقا على حديد شبابه ، وقد اوثقت يدها وقدماه . وبعد « انتحار » بومينجل ، الذي سجن وعذب على ايدي المظليين طوال بضعة اسابيع ثم القي من اعلى سطيحة ، اوقف « كابيتان » استاذ الحقوق في جامعة باريس دروسه احتجاجا : فكان لحركته اصداء صاخبة . ويوم ٢٩ اذار ، قام الجنرال دولبولاردير بحركة كان لها وقع الانفجار : فقد طلب ان يعفى من قيادته لانه كان يشجب طرق الجيش الفرنسي . اما قضية جميلة بو حرد فقد عرفت في فرنسا كلها وفي الخارج . ولم يجهل الرأي العام الحملة التي شنها اليسار ضد التعذيب ، بدليل انها ازعجت الحكومة الى حد ان انشأت « لجنة للسلامة » لتحتمي خلفها .

وكننت قد انهمت بانى ضد فرنسا : واصبحت كذلك . لم اكس اطيع بعد مواطني . وحين كنت اتناول العشاء في المطعم مع لانزمان او سارتر ، كنا ننزوي في ركن . وكانت ضجة الاصوات تلبنا مع ذلك . وكانت عبارة ما تلفظ بين تعليقات سيئة عن مرغريت او بريجيت باردو او ساغان او غراس اميرة موناكو ، فتعطينا الرغبة في ان نفرقع . وذهبت مرة مع لانزمان الى « تروا بوديه » حيث كان يقني فيان . وكان الممثلون في احد الاسكتشات يفتنون صحفا : هزيمة وحدات الفصاة ، انضمام حي او مشنى الى صفوفنا . وكننت اقرا : ريفيه اورادور ، واحتقر ضحكات القاعة . وفي مساء اخر ، استمعنا الى « غريكو » في « الاوليا » . وعلى المسرح روى مستوطن فرنسي في الجزائر قصصا عن « النيبوس » ، فشعرب بلزوجة العار تملأ يدي . وفي السينما كان

ينبغي ان نبتلع صور الاحداث التي كانت تتكلم عن جمال الاعمال الفرنسية في الجزائر . وانقطعنا عن الخروج . واصبحت محنة لنا ان نشرب بعد فنجان قهوة في حانة ، وان ندخل مخبزا . وكنا نسمع من يقول : « ان سبب هذا كله هو ان الاميركيين طامعون في بترولنا » او نسمع : « ولكن ماذا ينتظرون للاعجاز على المقاومة والانهاء منها ؟ » وعلى سلطانح المقاهي ، كان الزبائن يسطون جريدتي « لورور » و «باري بريس» وكننت اعرف ما الذي كان يدور في خلدنهم : الشيء نفسه المطبوع على الورق . ولم اكن استطيع بعد ان اجلس الى قريهم . كننت قد احببت الجموع : اما الان ، فان الشوارع نفسها اصبحت تكن لي العداء ، وكننت احسني فارغة اليد ، شاني في الايام الاولى من الاحتلال . بل لقد كان الامر اسوأ من ذلك . لان هؤلاء الناس الذين لم اكن اطيع بعد ان اسير الى جانبهم ، انما كننت اجندني ، عن رضى او عن مفض ، شريكة لهم في الذنب . وهذا ما لم اكن اغفره لهم اكثر من اي شيء اخر . او ربما كان ينبغي لي منذ الطفولة ان اتربي تربية احد افراد الشرطة العسكرية النازية ، او احد افراد المظليين ، بدل ان اتزود بضمير مسيحي ، ديموقراطي ، انساني : ضمير . كننت بحاجة الى احترام لي اعيش ، وكننت اراني بيمون نساء انتهكت اعراضهن عشرين مرة ، او رجال حطمت ضلوعهم ، او اولاد اصبوا بالجنون : امراة فرنسية .

وكانت اختي وزوجها قد اقاما في باريس . وكان هو اشتراكيا يدافع عن سياسة موليه ، وكان يقول لي : « ولكنهم وضعوا حسدا للارهاب في الجزائر » وكننت اعرف - بطريقة غير كاملة ، ولكن معرفة كانت كافية لطمأنيتي - كم كلف هذا السلام الزائف . وكان يقول لي ايضا : « اما التعذيب ، فليس الا حالات استثنائية » وكان ذلك يدفعني الى غضب كننت احاول ان اكظمه . ولكنني كننت احس من خفقات قلبي المتسارعة ، وثقل رقبتي ، وطين اذني ، ان توتري قد ارتفع .

وكننت اتمنى لو احطم مشاركتي في الذنب مع هذه الحرب ، ولكن كيف ذلك ؟ هل اتحدث في الاجتماعات العامة ؟ هل اكتب المقالات ؟ لو فعلت ذلك لقلت ما كان يقوله سارتر ، ولكن بطريقة رديئة . وكان يبدو لي مضحكا ان اصحبه كظله في المظاهرة الصامتة التي اشترك فيها مع موريالك . واليوم ، شتاء ٦١ ، لا يسعني مهما كان وذي خفيفا في الميزان ، الا ان القي فيه بكل ثقلي . ولذلك ، كننت اريد بعد ، قبل ان احاول ذلك ، ان ابذل مجهودا لا يبدو لي من غير جدوى .

كنا نعرف جيدا فرانسيس جانسون : فقد سبق له ان التقى سارتر عام ٦٦ لكي يسلمه مخطوطة « مذهب سارتر الاخلاقي » . وكان في اثناء الحرب قد عبر الحدود الاسبانية لينضم الى مقاتلي فرنسا الحرة : فقبض عليه ووضع في معسكر . واطلق سراحه بعد بضعة اشهر ، وكان الاسر قد هدم صحته ، فاضطر الى الالتحاق باحد المكاتب في الجزائر . وارتبط برباط الصداقة مع بعض المسلمين . وبعد التحرير ، عاد مرات كثيرة الى الجزائر وتابع عن كتب ما كان يجري فيها : وهكذا تمكن من تأليف كتابه : « الجزائر التمرد على القانون » . وحين اصبح مساعدا في « النان مودرن » ظل مديرا لها اربعة اعوام . وعام ٥٥ ، نشر في دار « سوي » كتاب « سارتر كما يرى نفسه » . وكان قليلون يعرفون فكر سارتر معرفته اياه . وبعد بودابست ، كان قد اخذ على سارتر انه وقف موقفا صلبا اكثر مما ينبغي ، وفي ذلك الحين فترت علاقاتنا . ولكننا عرفنا من البعض انه كان في الجزائر يشارك جبهة التحرير الوطني في نضالها . ولم يكن احد منا ، لا لانزمان ولا سارتر ولا انا ، مستعدا بعد لاقتفاء اثره . لم يكن في الجزائر الا خيار واحد : فاما الفاشية واما جبهة التحرير الوطني . وكننتا نفكر ان الامر مختلف في فرنسا . كنا نجد ان اليسار لم يكن لديه دروس يعطيها للجزائريين ، وان « المجاهد » قد احسن صنعا باعادة اليسار الى مكانه . ولكننا كنا نفتقد كذلك ان بالامكان ان نعمل لاستقلالهم بوسائل مشروعة . وكنا نعرف ان جانسون ما كان ليتخذ هذا الالتزام

لو لم قد فكر فيه بنضج ، ولا ريب في انه كانت له وجهة نظره . على اني خشيت . فقد سبق ان التقيت شخصين كانا يعملان معه(1)، وكانا قد صدماني بخفتها وثرثرتها . وكنت اتساءل عما اذا لم يكن العمل السري طريقة لتصفية بعض العقد النفسية . اتراه لم يكن لدى الذين اختاروا هذا العمل السري ارادة للانفصال عن المجتمع الفرنسي، ربما كانت مرتبطة بحقد او بلون من الاستياء (2) كنت تجاه السؤال المعلق الذي يطرحه علي اختيارهم ، ادافع عن نفسي بهذه الشعوذة النسبي احتقرا ، النزعة البسيكولوجية ، من غير ان اتساءل عما اذا لم يكن حذري قد املته علي دوافع ذاتية . انني لم اكن قد فهمت ان جانسون لم يكن ، وهو يساعد جبهة التحرير الوطني ، ينكر انتماه لفرنسا . وحتى لو كنت قد قدرت عمله تقديرا اوعى واكثر تبعرا ، فانه يظل باقيا ان المرء الذي يشارك فيه ، يتحاز في عيون مجموع البلاد الى معسكر الخيانة : وكان شيء ما في - من مثل الخجل والمخلفات - يمسكني دون مواجهة ذلك بعد .

\*\*\*

لم يشف اليسار الفرنسي جيدا من حادثة بودابست . وقد اغتاط اللاشيوييون من قسوة العقوبات التي حكم بها الثوار - ومنهم تيبور ديري الذي حكم بربع سنوات في السجن - في حين كان الحزب الشيوعي ماضيا في تأكيد تضامنه مع كادار . ووقفت جريدة « الايتانسيل » . واصدر فيركور الذي كان صديقا متحمسا للحزب كتابا طريفا اوضح فيه انه قد مل تمثيل دور آنية البورسليين الشرفية ، وانه قد ترك المسرح . وكان جمود البروليتاريا السياسي اخطر من منازعات المثقفين هذه . وفي اخر تشرين الاول ، دعا اتحاد العمل العام واتحاد العمال المسيحيين الفرنسي الى اضراب ناجح للغاز والكهرباء ، والى اضرابات اخرى انجزت في سان نازير بمنصف شديد حتى ان عاملا قتل ، وجرح الصحفي « غاني » . ووقف عمال شركة « رينو » العمل ، وكذلك اعضاء هيئة التعليم والموظفون . ولكن نشوب هذه الحركات في ابان الازمة الوزارية كان يدل على انها كانت ضد السياسة . فلم تربط الاحزاب ولا النقابات بينها وبين اي صراع ضد حرب الجزائر . على ان اليمين كان يتحرك ، وكان الحديث يجري عن مؤامرات وانشاط « الاكسبريس » مؤتمرات اقليمية لمكافحة التهديد الفاشي .

وكان « ربع الساعة الاخر » الذي اعلنه لاکوست مستمرا منذ اكثر من عام ، وكانت طرق اعادة السلام هي لم تتغير . وكان هناك بعد ذلك ، على حد تعبير « دانيال » احد محرري « الاكسبريس » : « الحصاة المألوفة من اعمال التعذيب » ، وكان يشير بذلك امام احد الاصدقاء الى موجز مواد احد اعداد « النان مودرن » . صحيح ان هذا كان ريبيا : الضرب ، والمفطس ، والشنق والحرق وانتهاك الاعراض ، واستعمال الاقماع ، وانتزاع الاظافر ، وكسر العظام : كان ذلك شائعا . ولكننا لم نكن نجد سببا لتغيير الاسطوانة ما دام الجيش والشرطة لا يغيرانها .

وكان جاممي يدعى « اودين » قد اوقف في الجزائر يوم 10 حزيران : وسرعان ما انقطعت اخباره . وكان اساندة ليسييه جول فيري قد طلبوا اجراء تحقيق : ولكن عبثا . وفي مطلع كانون الاول قدم احد اصدقائه ، بدلا عنه ، رسالته في الرياضيات بجامعة السوربون : فكانت حفلة تاييبية حضرها عدد كبير من الاساتذة والكتاب .

(1) ما لبنا ان نركاه .

(2) اجاب جانسون على هذه التلكوك ايجابية ممتازة : « حين باشرنا هذا العمل الذي يؤخذ علينا ، لم تكن محتاجين الى عمل ، وكان كل منا يحب مهنته التي لم يكن فيها فائلا قط . ولم تكن نستطيع ان نجعل ان فرنسا كانت البلد الوحيد الذي كان لنا حظ ان نحس فيه بالاطمئنان لكي نعيش ونعمل وفق امزجتنا » .

وحتى قراء « الفيفارو » اطلعوا ، مما كتبه مارتان شوفيه(1) ، على حوادث الاعتقال الاعتيابي والاختفاءات والتعذيبات . وفي جريدة « لوند » ظهر بعد بضعة اسابيع من التسوية تقرير « لجنة السلامة » وقد بدأ المقرر بالتصريح : « بان اعمالا يمكن في اوقات اخرى وظروف عادية ان تعتبر تجاوزا وافراطا ، هي في الجزائر مشروعة تماما » اذن ، فلم يكن واردا فصحا ، وقد اكتفي بالاشارة الى الوقائع التي كانت تبدو ، في قلب هذه « المشروعية » المفرطة ، فاحشة . وكانت كثيرة وضخمة ، وكانت كافية لاثارة فضيحة . وقد هوجمت « لوند » هجوما عنيفا لنشر التقرير . اما الراي العام ، فقد تلبت طويلا امام الاحداث . وفتحت يوم 1 كانون الاول محاكمة بن صدوق . وكان لبضعة اشهر خلت ، قد قتل علي شهقالي نائب الرئيس السابق للمجلس الجزائري واهم شخصية من المتعاونين المسلمين . وقد استشهد محاميه ، بيار ستيب ، بعدد من المفكرين بينهم سارتر ، كشهود دفاع . وكان سارتر منفلا حين قصدنا قصر العدل . ان الكلام في المؤتمرات والاجتماعات لا يزن مثل هذا الوزن الثقيل . اما هنا ، فقد كان رأس انسان في الميزان . فلئن انقذه ، فان عفوا عاما بعد بضعة اعوام سيجعل منه رجلا حرا من جديد : وكانت الموازنة بين الموت والحياة اشد تطرفا منها في اية محاكمة عادية . من هنا ، كان ضيق الشهود الذين كان كل منهم يفكر بان شهادته كانت توشك ان تميل نهائيا قرار المحكمين .

ووضع سارتر والشهود الاخرون بمعزل عن المحاكمة . اما انا ، فقد جلست وسط جمهور كبير ، الى قرب المحامين الشبان . وعند قدم المحكمة ، كانت السيدة علي شهقالي محجبة بحجاب الحداد ، تمثل الجانب المدني . ونظرت الى الشاب ذي الوجه الصريح الذي كان واقفا في فقص المتهمين : كان قد قام بعمل شبيه بتلك الاعمال التي كانت توصف ، في اثناء المقاومة ، بانها بطولية . ومع ذلك ، فان هناك فرنسيين كانوا على وشك ان يغموه ربما حياته ، ثمن هذا العمل . وتكلم اصدقاء لصدوق عن مزياه كاسان ، وعامل ، وصديق . وبكى اقرباء مسنون له . وبعد ذلك ، راح اساندة وكتاب وكاهن وجنرال وصحفيون يشرحون عمل صدوق بالوضع الذي كان يعيشه اخوته الجزائريون : ورسموا هذا الوضع . وقال محاميان شابان كانا جالسين الى قبلي ، بلهجة انقباض : « انما يحاكمونا نحن : فهم يشرحون لنا ان كل ما يحدث لنا في الجزائر ، فنحن لم نسرقه ! » وكان الاتهام قد استدعى سوستيل . وقد وصل وعلى عينيه نظارتان سوداوان ، وهو يرتدي معطف صناعي كبير . ومن غير ان ينظر الى احد ، مدح الميت . وبعد ذلك ، تقدمت فتاة كانت تمشي ، بمساعدة ذويها ، على ساقين اصطناعيتين : لقد اصيبت بشظايا حادث اغتيال « كسلازينو الكورنيش » (2) . فاخذت تصرخ بصوت ثاقب ، متقطع :

- كفى فظائع ! انكم لا تعرفون ما نعانيه ! كفى دما ! كفى ! كفى ! وقد احدثت انزعاجا ارتد على الاتهام الذي كان قد اخرج هذا المشهد الميلودرامي ، اكثر مما ارتد على صدوق . وطالب اميل كاهن ، وكان ابيض الشعر هزيلا ، مترنحا ، طالب باسم « جامعة حقوق الانسان » التي كان رئيسها بان يعترف لصدوق بظروف تخفيفية واسعة . وقرأ راع رسالة من اخيه المجدد في الجزائر . وكان الشاب المجدد يروي كيف رأى وحدة اقليمية - اي مستوطنين فرنسيين في الجزائر - يعذبون شيخا عربيا . وقد اضطر الى تهديدهم بالسلاح ، وساعده بذلك بعض الرفاق ، لينتزع منهم طريدتهم . وقد سقطت هذه الرواية التي تتحدث عن الشنق والضرب والتعذيب في صمت الموت .

- التتمة على الصفحة ٧٨ -

(1) وكان قد قام بتحقيق باسم « اللجنة العالمية للكفاح ضد حكم مستكرات الاعتقال » .

(2) الذي حول فيما بعد الى مركز للتعذيب .

## يوم كان العار ملء ايدنا

- تنمة المنشور على الصفحة ٧ -

وبعزاء كبير عرفنا الحكم في المساء . سجن مؤبد : ولكن السجن  
ستفتح بعد الحرب . وكنا سعداء من أجل صدوق اولاً . ولكن كان  
يرفع معنوياتنا كذلك أن نرى أن في فرنسا بعد بعض الرجال القادرين  
على أن يحكموا وفق ضمائرهم ، تجاه انسان جزائري .

اما في الجزائر ، فان هذه الفكرة لم تكن سارية بعد . كانت  
اكباش الفداء تختار بالاتفاق : وقد اعترف ستة من المسلمين ، تحت  
الوان من التعذيب ، باشتراكهم في قتل « فورجيه » ، فاختر منهم  
واحد ، وبالرغم من أنه لم يقم أي دليل ضده هو بامدادات : فان «كوني»(١)  
رفض ان يعفو عنه .

حوالي نهاية كانون الثاني ١٩٥٨ ، طلب مني السيد «بروفييه»  
شهادة حسن اخلاق لصالح جاكلين غروج التي كانت في روان واحدة  
من افضل طالباتي . وقد عينت معلمة في الجزائر فتزوجت معلما مسلما ،  
وكانت مثله عضوا في الفرق المدنية لجيش التحرير الوطني . وكانت  
قد أعادت الى « ايفوتون » القنبلة التي كان قد وضعها في احسد  
المراكز . وقد حكم عليهما كليهما ، كما حكم على متهم مشترك معهما ،  
بالوت في كانون الاول ١٩٥٧ . وشن اليسار حملة لصالحهم، فشاركت  
فيها ، الى ان حصلنا على العفو عنهما . اما طالب المقتنع فقط بأنه  
قد هيا متفجرات وكان ينكر كل مشاركة بهذا العمل ، فقد نفذ فيه  
حكم الاعدام .

وحزن قسم كبير من اليمين الفرنسي لحادثة قصف قرية «ساقية»:  
فقد كانت حوادث كحادثة « اورادور » ترتكب كل يوم على حد قول  
كابورال في الجيش . اما ضرب قرية تونسية ، فثلك غلطة فاحشة .  
وارادت الانباء الرسمية ان تبرر هذا القصف ، ففرضت في الاحداث  
المصورة بدور السينما شريطا كان يظهر جنودا من جيش التحرير الوطني  
معسكرين في تونس : وكانت تلك غلطة اخرى ، فقد كانوا بلباسهم  
الرسمي وتنظيمهم يشكلون جيشا لا جمعية من المشايخ الاشرار .

وكانوا يروون ان الجنرال « ماسو » ، صاحب الروح النقية  
الموسوسة ، اراد أن يتذوق التعذيب ، وانه قد صرح : « انه قاس  
جدا ، ولكن يستطيع رجل شجاع ان يتحمله » . وصدر كتاب يكشف  
حقيقة التعذيب التي لا تحتل ، هو كتاب « الاستجواب » (٢) لهنري  
البيغ . وعلق عليه سارتر في مقال بعنوان « انتصار » نشرته مجلة  
« الاكسبريس » وحذفت المراقبة بعض مقاطعه . ومع ذلك ، فقد بيع  
الكتاب بعشرات الالوف من النسخ ، وترجم في العالم كله .

لقد كان التعذيب الان واقعة ثابتة حتى ان الكنيسة نفسها  
اضطرت الى اصدار حكمها عن شرعيته . وكان كثير من الكهنة يرفضونه،  
بالكلام وبالعمل ، بينما كان كهنة اخرون يشجعون « هيئات النخبة »  
في التعذيب . واما المطارنة ، فقد كان معظمهم يتهبون بعيدا في  
التساهل ، ولم يكن احد يجازف في الانتقاد والتوبيخ . وكم كان  
بين المدنيين من صمت موافق ! وكان صمت كامو يثيرني . انه لم يكن  
يستطيع ان يتحجج ، كما تحجج في اثناء حرب الهند الصينية ، بانه  
لم يكن يريد ان يلعب لعبة الشيوعيين . فكان يتمن بان المتروبول  
لم يكن يفهم المشكلة . وحين أتى الى سنوكلم ليتلقى جائزة نوبل ،  
كشف عن نفسه أكثر فاكثراً . وكان يمتدح حرية الصحافة الفرنسية :  
وفي ذلك الاسبوع ، صودرت « الاكسبريس » و « الاوسرفاتور »  
( « فرانس - نوفيل » . وصرح امام جمهور كبير : « أنني احب العدالة،  
ولكني سادافع عن آمي قبل العدالة وهذا يعني انه ينحاز الى صف  
المستوطنين الفرنسيين . وقد كانت الزيادة تكمن في انه كان يتصنع  
في الوقت نفسه انه قائم فوق المعركة ، مانحا بذلك كفاية لمن كانوا  
يتمنون التوفيق بين هذه الحرب وطرقها وبين النزعة الانسانية  
البورجوازية . ذلك ان بلادنا ، كما قال الشيخ روجيه ، بعد ذلك

لم يكن ثمة تنهيدة اندهاش او اشمئزاز : كان جميع الناس يعرفون .  
ومرة اخرى ، اصبت بتجلد القلب من هذه الحقيقة : كان جميع الناس  
يعرفون ولا يباليون ، او يوافقون .

وكان سارتر بين اخر من ادلوا بشهادتهم . ولم يظهر اضطرابه  
في شيء الا في تسمية القنيل « علي شاقال » ، حين تحدث عنه في  
احترام متصنع المراعاة . وقآن وضعه بوضع بن صدوق ، فشرح ان  
لشبان لم يكونوا يستطيعون ان يقرروا صبر الذين يكبرونهم في  
لسن ، لانهم لم يكونوا يعرفون من فرنسا الا وجهها الدموي . وأشار  
بعد ذلك الى ان العمل الذي قام به صدوق كان جرما سياسيا ولا ينبغي  
ان يشبه بقتل ارهابي . وبذل جهدا كبيرا ليتكلم لغة لا تصدم المحكمة،  
وقد تعزت هذه باعتداله .

ثم قدم ماسينيون شهادته ، وبعده جيرمين تيون . فلاحظت ان  
فرنسا قد دفعت الشيبية الى التحقد . وروت ان مدرسا كان قد طرح  
على طلابه ، وهم من المسلمين الذين لم يتجاوزوا العاشرة ، هذا  
الموضوع للنشأة : « ماذا تفعل لو كنت غير مرئي ؟ » ، وقرأت جيرمين  
بعض المسابقات : لقد اجاب الجميع ، عبر الوان من الاختلافات  
الخيالية ، بما معناه : « لو كنت غير مرئي لقتلت جميع الفرنسيين » .  
وغادرت القاعة . وفي المرات كان الجنرال « توير » يرقق ويرعد  
ضد فرنسيي الجزائر . وكان جميع الشهود يمتدحون تجرد الرئيس  
والحرية التي كان قد منحهم اياها . وكانوا يطلقون في قسوة على غياب  
كامو . وقد كان لصوته وزن ثقيل ، لو كان قد قبل الحضور ، لا سيما  
وانه كان قد نال جائزة نوبل . وكان ستيب قد طلب منه فحسب ان  
يقول بصوت مرتفع ما كان قد كتبه في دراسة حديثة بشجب حكم  
الاعدام : ولكنه رفض ان يمثل امام المحكمة ، بل رفض ان يرسل  
رسالة الى المحكمة . وكان بعض الشهود ، التماسا لرحمة المحكمة ،  
قد ذكروه ، واحيانا بلهجة لا تخلو من الخبث .

تناولت العشاء في « لا باليت » مع سارتر ولانزمان . ترى ، هل  
يتخذ رأس صدوق ؟ لقد كنا قلقين . وشرب سارتر الويسكي ليخفف  
التوتر الذي خضع له طوال النهار : وكان لا يستطيع احتمال الويسكي  
منذ فترة من الزمن ، فتغافم انفعاله . وما لبث أن سقط في شراسة  
غاضبة :

- من كان يظن اني سامتدح شهنقال ؟ واني سالتحدث ضد الارهاب:  
كما لو انني كنت اشجب الارهاب ! وكل ذلك لكي اروق « لبوجاديين »  
الحكمة ! انتصرون ذلك ؟

وكان الحزن الحائق والغضب يصعدان الدمع الى عينيه ، وكان  
يسرد :

- كل ذلك من اجل البوجاديين !  
وقد دعت من عنف تأثره وانفعاله : انه لا يعني فقط الاشتمزاز  
من التنازلات التي وافق عليها ، فقد كانت اعصابه منذ اسابيع واشهر،  
ناثرة .

وصباح اليوم التالي اغمطنا قراءة الصحاح . صحيح انها كانت  
وهي تورد الشهادات تنصب على غير ارادة منها مطالعة ممتازة ضد  
الحرب : وهكذا سيعلم الجمهور الحقائق ، بطريقة غير مأمولة . ولكنها  
كانت منحازة بصورة عنيفة ضد صدوق . وقد عنونت احداها مقالها  
بعبارة : « ما اجمله شابا ، فائل شهنقال ! » وكانت الصحافة تتهم  
الشهود بانهم « وسخوا » فرنسا ، وكان يبدو أن سكن الفصل توحدما  
هي التي تستطيع معو هذا العار . وكنا نخشى ان تتأثر المحكمة  
بهذه المقالات .

(١) رئيس الجمهورية الفرنسية (ه.م.)

(٢) وقد صدر مترجما بالاعربية عن دار الاداب بعنوان « الجلادون » (ه.م.)

الرابعة . فاذا تركني وهو يترنج ، كنت اواخذ نفسي على مسلكي . وكانت تتنابني الوان من القلق الحاد الشبيه بالذي عانيته فسي حزيران ١٩٥٤ .

كنت اؤمل ان يحمل لي الثلج بعض المرح . ولكن الاسبوعين اللذين قضيتهما في « كورسوفيل » قد خيباني . وكنت احسبني استعيد شبابي ، حين انتعلت لعامين انقضيا آلة التزلج : كان عمري يتحسّد باني لم اكن اتقدم . وكان لانزمان نادرا ما يصحبني على حلبات التزلج: كان يكتب لمجلة « التان مودرن » مقالا عن خوري « اورف » . وكانت مدهشة قصة ذلك الكاهن وهو يقتل المرأة التي جعلها تحمل منه ، ثم بقر بطنها ليعمد الجنين ، ودق الجرس فاضحا بالجريمة ، ومساعدة ابناء رعيته على البحث عن الفاتل . وقد كانت المعاملة اشد من ذلك ادھاشا ، وقد استخرج لانزمان مفزاها ببحث وصرامة : « ان وجهة نظر الكنيسة » كانت تطلب رفض فهم الخوري ورفض معاقبته في وقت واحد » . كان الكاهن قد انقذ رأسه ، في حين ان قاتلي سان كلود - اللذين لم يكونا اقل جدارة بالرحمة ، باعتبار انهما صبيان نصف متاخرين ، وقد قضيا طفولتهما في الميامن - قد حكما بالاعدام (١) . وكان اتجنب الاصفاء ، اثناء وجبات الطعام ، الى ما كانوا يقولون . من اجل هذا خاصة كان مكوثي ذاك غير سعيد : فكانما كنا قد بقينا في فرنسا . لقد كنت غارقة في هذه البورجوازية كلها التي كنت افر منها فسي باريس . صحيح ان الرجل والزوجة اللذين كانا يشكوان من انه ليس من حق البلجيكيين في الكونفو ان يقتلوا الزوج بعد - كانا بلجيكيين، ولكن الفرنسيين الموجودين كانوا يفهمون حسرتهم . وحين اردت فسي نيسان ان اسافر بضعة ايام بصحبة لانزمان ، اخترنا انكلترا : الشاطئ الجنوبي ، الكورنواي . وكان الفرنسيون الوحيدون الذين يوحدون لي جماعيا بالود ، هم من الشبان . وقد طلب مني طلاب يساريون ان القى في السوربون محاضرة عن الرواية ، فقبلت : لقد كنت اعيش منسجبة من الحياة العامة الى حد اني ، حين دخلت قاعة المحاضرات ، لاحظت من استقبال الجمهور لي ، اني لم اكن مجهولة لديه . ودفأت صداقته قلبي : وكان بحاجة لها .

(١) وقد عني عن احدهما .

بسنة ، من غير ان يضحك « نحتاج الى ان تلون جميع اعمالها بمثل اعلى من العالمية والانسانية » . وبالفعل ، فقد كان مواطني يتدبرون الامر ليحافظوا على هذا المثل الاعلى فيما هم يركلونه باقدامهم . وقد كان جمهور حساس يبكي كل مساء ، في مسرح مونبارناس ، على المصائب القديمة التي اصيبت بها « آن فرانك » الصغيرة . اما جميع اولئك الاطفال الذين كانوا يحضرون ويموتون ويجنون فوق ارض يقال انها فرنسية ، فان هذا الجمهور لم يكن يريد ان يعرف من امرهم شيئا . واذا حاولت ان تطفهم عليهم ، انهموك باسناد معنويات الامة .

ولم اكن لاحتمل بعد هذا النفاق ، وهذه اللامبالاة ، وهذه البلاد، وجليدي الخاص . ان هؤلاء الاشخاص الذين يسرون في الشوارع، موافقين او شاردين ، انما كانوا جلادين للفرق : كانوا كلهم مدنيين ، وانا كذلك . « انني فرنسية » لقد كانت هذه العبارة تجرح حلقي كما لو انها اعتراف بعاهة . كنت في نظر ملايين من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال ، اختا للمدنيين ، للمحرفين ، للذابحين ، للمجوعين . وكنت استحقق حقدهم ، لانني كنت استطيع ان انام واكتب واتمتع بنزهة او بكتاب : واللحظات الوحيدة التي لم اكن استشعر فيها الخجل ، هي تلك التي لم اكن استطيع فيها ان اكون كذلك ، تلك التي يؤثر فيها المرء ان يكون اعمى على ان يقرأ ما يقرأ ، وان يكون اصم على ان يسمع ما يروى له ، وان يموت على ان يعرف ما يعرف . كان يخيل الي انسي احمل مرضا من تلك الامراض التي يكمن اخطر عوارضها في عدم الاحساس بالالم .

وكان بعض المظليين يقيمون احيانا ، على رصيف سان جيرمين دي بريه نوعا من الكشك . وكنت اتجنب دائما الاقتراب ، ولم اعرض قط ما كانوا يصنعون : لقد كانوا على اي حال يقومون بالعباية لانفسهم . وكنت من وراء طاولتي اسمعهم يعزفون الحانا عسكرية . وكانوا يتناقشون ، واعتقد انهم كانوا يقدمون صوراً مختارة عن حملاتهم . وكنت استشعر هذه الكرة في حلقي ، هذا الاشمزاز العاجز الغاضب: ذلك ما كنت احسه حين كنت ارى الشرطة العسكرية النازية . وكانت الملابس العسكرية الفرنسية تحدث لدي الرعدة نفسها التي كانت تحدثها في الماضي الصليان المعقوفة . وكنت انظر الى اولئك الفنية في الثوب الكاكي الذين كانوا يروحون ويجيئون مبتمسين ، ووجوههم برونزية وايديهم فارغة : تلك الايدي ... وكان اناس يقتربون، مهتمين، فضوليين ، وديين . اجل ، كنت اسكن مدينة مختلة ، وكنت احتقر المحتلين في ضيق اشد من ضيق سنوات ١٩٤٠ ، بسبب جميع الروابط التي كانت تشدني اليهم .

وكان سارتر يتعزى من الوضع بالانقراض على « نقد العقل الديالكتي » يكتبه بسعير وغضب . ولم يكن يعمل على مالوف عادته باللجوء الى بعض الراحة والتوقف والنشط وتمزيق صفحات وكتابة سواها . كان طوال ساعات متتابعة ينتقل من ورقة الى ورقة من غير ان يقرأ ما كتب ، كما لو انه كان مشروفاً بالفكر انني لم يكن قلمه ، حتى ولو جرى ركضا ، يتمكن من القبض عليها . ولكي يبقى على هذا الاندفاع ، كنت اسمعه يقرض حبوب الكوريدرام التي كان يتلع منها انبوبا كل يوم . حتى اذا اشرف النهار على نهايته ، كان مرهقا نافذ القوى . واذا كان يأتي حركات غير واثقة ، بعد ان يكون تنبهه قد تراخى ، ويقول غالبا كلمة بدلا من اخرى . وكنا نقضي امسيانا في شقتي ، وكان الكحول يستخف برأسه لمجرد شرب كأس واحدة ، فكنت اقول له : « هذا يكفي » . ولكن ذلك لم يكن يكفي ، فكنت اقدم له كأسا اخرى ، على مريض . وكان يطلب ثالثة . وقد كان منذ عامين محتاجا الى اكثر من ذلك . ولكن مشييته وكلامه الان كانا يرتبطان بسرعة، وكنت اردد « هذا يكفي » . وقد تولاني غضب عنيف مرتين او ثلاثا ، وارسلت يوما بالكاس تنحطم على بلاط المطبخ . ولكن كان يرهقني ان اتخاصم معه . ثم اني كنت اعلم انه كان بحاجة الى راحة الاعصاب ، اي الى ان يهدم نفسه قليلا ، ولم اكن احتج عادة الا عند الكاس

## مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

العصاة	صدقي اسماعيل
الطائفية والاقطاعية في لبنان	ميشال غريب
التراث الانساني العظيم	اميل خوري حرب
الغزالي وابن رشد	نجيب مخول
اكتشاف الحياة	بيار دي سان سير
عيد الستين	بولس سلامه
لبنان في روائع اقلامه	جميل جبر